

اجتهادات ما تفعله الموسيقى

مُلهم تصرف السيدة اللبنانية التي واجهت صدمة الانفجار في مرفأ بيروت، والخراب الذي ترتب عليه، بالعزف على البيانو. تظهر هذه السيدة في فيديو متداول أعده عفت شهاب الدين، وهي تعزف وسط دمار جزئى لحق بمنزلها من جراء الانفجار، وتقول ما معناه إنها ما إن وصلت إلى البيت ورأت ما حدث فيه، حتى وجدت نفسها متوجهة إلى البيانو لتعبر عن مشاعرها بالموسيقى.

وكان أول ما عبرت عنه شكرها لله لأنها لم تُصب بأذى، وقلقها الشديد على غيرها من الناس الذين لا تعرف ماذا حدث لهم، وحاجتها إلى الصلاة لتدعو الله أن ينجينا من الأعظم. وختمت بنصيحة إلى كل سيدة ألا تسمح للفشل أن يُكبلها، أو يوقفها ويدفعها إلى اليأس، لأنه دون أمل وحب لن تكون هناك حياة.

وعلى من يساوره الشك في قيمة الموسيقى وأهميتها في حياتنا اليومية، والأثر الكبير الذى تُحدثه فينا، أن يشاهد هذا الفيديو. وليت كل من يشاهده يُنصت باهتمام إلى السيدة التى تعطينا درسًا في دور الموسيقى في تخفيف آثار المآسى والكوارث والفجائع، وغيرها من الشرور التى تُسمم حياة من يستسلم لها، ولا يقاومها. وليس هناك ما هو أكثر فائدة من الموسيقى للتسلح بهذه المقاومة.

الموسيقى، إذن، ليست فنًا ممتعًا فقط بخلاف ما يبدو شائعًا. ولذلك يهتم بعض الأوساط الأكاديمية الآن بما صار يُعرف بفلسفة الموسيقى، ودراسة أثرها ليس في مشاعرنا وحالتنا النفسية فقط، بل في طريقة تفكيرنا. ونظرتنا إلى الأمور أيضًا.

ولعل هذا يفسر اهتمام فلاسفة، وعلماء بها، منذ الفيلسوف وعالم الرياضيات الإغريقي فيثاغورس الذي ربط بين الحساب والموسيقى، أو بالأحرى اكتشف علاقة بينهما. وقد درست هذه العلاقة بعد ذلك، وتبين بالفعل أن جمال العمل الموسيقي ينتج من عزل منظومة صغيرة متجانسة عن أعداد كبيرة من الأصوات الناشئة.

وتوصل إيمانويل كانط أبرز فلاسفة عصر التنوير إلى نتيجة قريبة من هذا المعنى، وهي أن الإمتاع الناتج عن الاستماع إلى الموسيقى، والأثر الذي تحدثه، يعودان إلى تجانس مكوناتها، إلى جانب سمو المعاني المتضمنة فيها.